ME NA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا

نحو إسلام بلا معجزات

د. حمزة رستناوي

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا.

الملخص التنفيذي:

ليست المعجزة من لوازم الدين، وليس الاعجاز القرآني ضمناً من أركان الايمان؛ فالمُعجزات التي جاء ذكرها للأنبياء في القرآن الكريم كانت في سياق قصصي ولغاية التعليم والاعتبار والارشاد، وبما يتناسب مع ثقافة المجتمعات المعاصرة للنبوة آنذاك. ولقد رفض النبي محمد ﷺ نفسه لمبدأ المعجزات بمواضع مختلفة من القرآن الكريم. ثم لنتساءل أين تتجلى قدرة الله أكثر في (معجزة الموبايل) أم معجزة هدهد سليمان؟! هل جماليات اللغة دليل على المصدر الالهي للكلام والنصوص؟ وإلى أي درجة يمكن اعتبار البلاغة اعجازا؟

لذلك لا يمكن إدراك المُطلق إلا على نحو نسبي. فالله جل جلاله ليس الله بمُنفصل عن العالم، كما أن العالَم ليس هو الله، وقدرة الله ليست إلا قوانين الكون وانتظام الطبيعة البديع، ولا ينبغي وضع قدرة الله في سياق مُنفصل أو مُناقض لقوانين الكون وانتظام الطبيعة. فقدرته جل جلاله تسري في المشاعر فيختلج في صدرنا شعور الدهشة والرهبة الغامضة؛ الله هو الروح التي تسري في العالم ليكون له معنى! برهان رسالة الاسلام – وأي اعتقاد ديني آخر- هو داخلي وليس خارجي، هو إيماني وليس علمياً على طريقة العلوم، برهان رسالة الاسلام هو في انسجامها مع السنن الكونية وقوانين العالم، وليس في خرقها لهذه السنن والقوانين! إنّ مِصداق وأهمية الاسلام كرسالة يكمن في خطابه نفسه، وما يريد قوله للناس بما ينعكس صلاحا للمؤمنين والتزاما بأولويات الحياة والعدل والحرية.

هذه الدراسة تناقش ذلك كله من خلال المحاور التالية:

- **مفهوم المعجزة.**
- **هل المعجزات والاعجاز القرآني من أركان الايمان؟**
- **النبي الكريم يرفض مبدأ المعجزات!**
- **نقد التفكير الاعجازي**
- **من هدهد سليمان إلى معجزة الهاتف الجوال!**
- **الاسلام وقصور برهان المعجزات؟**
- **المعجزات المنسوبة للنبي**
- **هل توقفت المعجزات بمجيء نبوة محمد؟**
- **رأي المعتزلة في المعجزات**
- **القرآن ومعجزات الأمم السابقة**
- **مناقشة آيات الاعجاز والتحدي في القرآن الكريم!**
- **تفسير النصوص في سياق مُعجز (الاسراء والمعراج- انشقاق القمر)**
- **حول معجزة القرآن، هل القرآن الكريم كتاب معجز؟ لمن؟ ولماذا؟**

مفهوم المعجزة

المعجـزة لا تعنـي خرقـاً لقانـون العلـم وانتظـام الطبيعـة، بـل تعنـي أنّ معرفتنـا بالقانـون ناقصـة وينبغـي تحسينها. فلسـفياً وعقائديـاً يمكـن التمييـز بيـن نمطيـن مُختلفيـن لتجلـي المُطلـق الالهـي، النمـط الأول يـرى الحضـور الإلهـي فـي قوانيـن الطبيعـة وبديـع انتظامهـا، والنمـط الثانـي يـرى أنّ الحضـور الالهـي الأقـوى هـو فـي الخـروج علـى انتظـام الطبيعـة وخـرق قوانينهـا. النمـط الأول يـؤدي إلـى واجـب الوجـود السببي/مسـبب الأسباب. أمـا النمـط الثانـي فيـؤدي إلـى مفهـوم ناقـص الوجـود السـببي/ناقص الأسـباب، وعمليـاً سـوف يـؤدي إلـى اسـتثناء شـخص مـا أو خـروج جماعـة مـا عـن قوانيـن الطبيعـة وبديـع انتظامهـا، وهـذا مـا سـوف يمهـد الطريـق لظهـور مفهـوم المعجـزة ونحـوه.

هل المعجزات والاعجاز القرآني من أركان الايمان؟

إن المعجـزة ليسـت مـن لـوازم الديـن. تسـتطيع أن تكـون مؤمنـاً صالحـاً، مؤمنـاً بـاللّه والنبـوة المحمديـة واليوم الآخـر وقداسـة القـرآن الكريـم دونمـا حاجـة للتحـدّي ولإعجـاز الآخريـن أو المعجـزات. إن مبـدأ المعجـزات بحـد ذاتـه يتنافـى مـع منهجيـة العلـم والسـنن الكونيـة.

فالمُعجـزات التـي جـاء ذكرهـا للأنبيـاء فـي القـرآن الكريـم كانـت فـي سـياق قصصـي ولغايـة التعليـم والاعتبـار والارشـاد، وبمـا يتناسـب مـع ثقافـة ووعـي المجتمعـات المعاصـرة للنبـوة آنـذاك. للقصـص عمومـاً وظائـف متعـددة، ولا يُشـترط فيهـا مُطابقـة وقائـع التاريـخ وتفاصيـل حدوثـه. إنّ تجريـد القصـص القرآنـي عـن سـياقاتها، واعتبـار مادّتهـا حقائقـاً تاريخيـة علميـة أو اعتبارهـا إعجـازاً علميّـا أو اعجـازاً ماضويـاً تاريخيـاً، كل هـذا يحتمـلُ التعسـف ويضـع النـص القرآنـي فـي تعـارض مـع مرجعيـة العلـم والبرهـان الموضوعـي.

النبي الكريم يرفض مبدأ المعجزات!

أفضـل مـا يمكـن الاستشـهاد بـه فـي علاقـة النبـي مـع المعجـزات هـو نصـوص القـرآن الكريـم نفسـه، تقـدم لنـا سـورة الاسـراء المكيـة حـواراً بالـغ الأهميـة بيِّـن الدلالـة فـي ذلـك، حيـث تسـرد الآيـات مـا طلبـه المشـركون مـن النبـي لكـي يؤمنـوا بدعوتـه: وَقَالُـواْ لَـن نُّؤْمِـنَ لَـكَ حَتَّـى تَفْجُـرَ لَنَـا مِـنَ الأَرْضِ يَنبُوعًـا أَوْ تَكُـونَ لَـكَ جَنَّـةٌ مِّـن نَّخِيـلٍ وَعِنَـبٍ فَتُفَجِّـرَ الأَنْهَـارَ خِلالَهَـا تَفْجِيـرًا أَوْ تُسْـقِطَ السَّـمَاء كَمَـا زَعَمْـتَ عَلَيْنَـا كِسَـفًا أَوْ تَأْتِـيَ بِـاللّهِ وَالْمَلآئِكَـةِ قَبِيـلاً أَوْ يَكُـونَ لَـكَ بَيْـتٌ مِّـن زُخْـرُفٍ أَوْ تَرْقَـى فِـي السَّـمَاء وَلَـن نُّؤْمِـنَ لِرُقِيِّـكَ حَتَّـى تُنَـزِّلَ عَلَيْنَـا كِتَابًـا نَّقْـرَؤُهُ قُـلْ سُـبْحَانَ رَبِّـي هَـلْ كُنـتُ إَلاَّ بَشَـرًا رَّسُـولاً.

إذاً يعـرض المشـركون علـى النبـي محمـد قيامـه بأحـد هـذه المعجـزات لكـي يؤمنـوا بـه: تفجيـر ينابيـع المـاء مـن الارض – اسـقاط السـماء عليهـم- مشـاهدة اللّه والملائكـة- إنـزال كتـاب مـن السـماء- أن يصعـد هـو الـى السـماء.. إلـخ. فمـاذا كانـت اجابـة النبـي عليهـم؟! رغـم أن تلبيـة أحـد طلباتهـم الإعجازيـة سـوف يُكسـبه رهـان الاعجـاز ويضعـه فـي موقـف متقـدم عليهـم؟! أجابهـم النبـي (سُـبْحَانَ رَبِّـي هَـلْ كُنـتُ إَلاَّ بَشَـرًا رَّسُـولاً) ويـا لهـا مـن اجابـة وافيـة.

إنّ ميـزة النبـي محمـد هـي فـي كونـه بشـراً مشـمولاً بمـا بطبائـع البشـر مـن سـنن المـرض، والصحـة،

والنجاح، والقصور.. إلخ. لقد انتصرت الدعوة المحمدية كونها أخذت بالسنن الكونية للانتصار ــ كغيرها من الدعوات العقائدية السياسية ــ في مزيج فريد يستخدم القوة أحياناً واللين أحياناً أخرى، يستخدم الاقناع حيناً والتهديد أحياناً أخرى، يستخدم الاقتصاد والروابط الاجتماعية بما يناسب ظرفه، ويخاطب الناس في مصالحهم ويعدهم بمكانة دنيوية أفضل مع وعود بحياة أبدية سعيدة بعد الموت. أم يخسر المسلمون غزوة أحد وغزوة مؤتة وتعثروا في غزوة حنين مثلاً!

في الحقيقة إن العلاقة المُفترضة بين النبي والمعجزات الحسية هي علاقة واهية تبخس التجربة النبوية حقّها، وهي من تأليف واستطرادات المخيال الشعبي المتأخر عن زمن النبوة. إنّ نظريات الاعجاز القرآني متأخرة نسبياً، تمت صياغتها في القرن الثالث للهجرة، بداية مع الاعجاز البياني، وتدرجاً على مراحل لتنتهي مع الاعجاز العلمي والاعجاز العددي في نهايات القرن العشرين.

هناك تيار معتزلي ظهر باكراً في القرن الثاني الهجري قَبِلَ توصيف القرآن الكريم بالمُعجز، ولكنه رفض الصفة الموضوعية للإعجاز القرآني (مقولة الصَّرفة) ومن القائلين بهذا الرأي ابراهيم بن يسار النظام وهشام الفوطي وعبّاد بن سلمان وغيرهم. ولتمثيل الفكرة السابقة يمكن تشبيه نمط الحضور الالهي الأول بدولة القانون والمؤسسات، أما نمط الحضور الالهي الثاني فيشبهُ دول السلطان والحاكم المطلق.

ففي **الدولة الحديثة**، دولة القانون والمؤسسات تتجلى قوة الدولة في انتظام قوانينها والتزام المواطنين لما سوف يحقِّق مصالح الشعب. بينما في **الدولة الاستبدادية** تتجلى قوة الدولة في بطشها، وتتجلى قوة السلطان وأتباعه في خرقهم لانتظام الدولة وانتهاك القوانين.

المعجزات تنتمي ثقافياً إلى نمط الدولة السلطانية التي يسودها الفوضى، الدولة التي تقبل خرق القوانين، وتعتبر ذلك من دلائل قوة السلطان. مبدأ المعجزة هو نفسه مبدأ الاستثناء والواسطة - الذي يعرفه السوريون جيدا في نصف القرن الأخير- الاستثناء الذي يختصُّ بفرد أو جماعة دون غيرها، وقد يكون اختصاصا ايجابيا للتفضيل، أو اختصاصا سلبيا للتنكيل ومضاعفة العذاب. إنّ مفهوم المعجزة يخرق مبدأ الانتظام والعدل الالهي، فعلى سبيل المثال: أهلك الله **قوم لوط** لشيوع الفواحش بينهم، لاحقا وحاليا يوجد مجتمعات كثيرة حول العالم تشيع بينهم نفس الفاحشة.. ولم يقم الله بإهلاكهم! الأفعال التي كانت تقوم بها أقوام عاد وثمود وفرعون وقوم نوح ماتزال متماثلاتها منتشرة حول العالم، ومع ذلك لم يتدخل الله بفعل إلهي مُعجز!

يعرِّف أسبينوزا المعجزة بأنها «كل عمل يجهل العقل البشري سببه» **ولكنَّ الجهل بالسبب لا يعني انتفاء الأسباب**، والجهلُ قابل للتغيير بالمزيد من المعرفة. الجهل هو احتجاب نسبي للمعرفة لسبب أو لعلّة. لقد اعتاد الناس تسمية العمل الذي يجهل العامة سببه عملاً إلهياً؛ أي عمل الله.[1]

المغالطة هنا تكمن في اقتران العمل الالهي بجهل السبب، وتقديم العمل الالهي خارج انتظام الطبيعة وقانون السبب.

---

١ رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ٢١٣

من التعريفات الشائعة للمعجزة «أمرٌ على خلاف العادة، يعجز البشر عن الإتيان بمثله» وظنّي أنّ هذا المعجزة هي تعبير قاصر عن فهم مبدأ السببية والسنن الكونية وأن التفكير الاعجازي مشروط بظرفه، ويمثّل طفولة العقل البشري في تاريخ سابق وغابر.

نقد التفكير الاعجازي

من خلال النقاط التالية:

أ- **(المعجزة)** لا تعني **خرقا لقانون العلم** وانتظام الطبيعة، بل تعني أنّ معرفتنا بالقانون الحالي ناقصة وينبغي تحسينها. الظواهر التي لم نستطع تفسيرها بميكانيكا نيوتن سوف نجد تفسيرها في النظرية النسبية لأينشتاين مثلاً.

(المعجزة) لا تستلزم الايمان والتسليم، بل تستلزم مزيداً من البحث العلمي لتفسيرها. عند معرفة القانون العام للشيء عندئذ يمكن تفسير **الحالات الخاصة والنادرة لحدوث الشيء**، وسأضرب عدة أمثلة من حقل اختصاص الطبي: مثلاً قد يرى البعض في إفراز الرجل أو التيس للحليب حدثا مُعجزاً.. ومعظم السوريين قد سمعوا بقصة **تيس البو كمال** في تسعينيات القرن الماضي، عند يكون لدينا معرفة بقوانين التوازن الهرموني للجسم، ما يراه عامة الناس (معجزة) سوف يقوم اختصاصي الغدد الصم بتفسيره، فهو ناتج عن وجود ورم مفرز لهرمون البرولاكتين في الغدة النخامية ليس أكثر! ومنه كذلك إمكانية مشي الانسان على الجمر لفترة معينة بسبب فرط تقرن الجلد أو اعتلال الاعصاب الحسية للقدمين!

ب- **نقص التوثيق التاريخي**: بداية ينبغي مُعاينة (الحدث المُعجز) **وتوثيق حدوثه** بمعايير يقبلها العلم قبل الخوض في تفسيراته والبناء عليها، وعمليا هكذا معاينات لم تكن مُتاحة في زمن النبوات، وكل ما بني على ظنٍّ هو ظنٌّ كذلك. فالنصوص التي تتحدث عن المُعجزات جاءت متأخرة بقرون عن الحدث المذكور، فليس بين يدينا نصوص موثوقة معاصرة للنبوة المحمدية أو نبوة عيسى، كما أنّ والوجود التاريخي لكثير من الأنبياء مثل موسى وابراهيم ونوح هو مثار جدل بحد ذاته. إنّ النصوص التي تحتفي بالنبوات جاءت متأخرة بسلسلة نقل شفوي تفتقد للدقة ومعايير التحقّق الموضوعي.

ت- **نقص الاثبات العلمي التجريبي للحادثة**: مثلا عندما يدّعي شخص أنّهُ يُحيي الميت، هذا يستلزم أولا تثبيت هوية الشخص والتاريخ والمكان كما هو مُتعارف عليه في أي شهادة وفاة أقوم بتحريرها اليوم! وهذا يستدعي ثانيا اثبات حدوث الوفاة طبياً وتحديد سببها، وليس كونها مثلاً حالة سبات عميق تمّ تشخيصه خطأ كموت سريريّ! وهذا يستدعي ثالثاً اثبات العودة للحياة. وهذا يستدعي رابعاً توثيق الواقعة عبر شريط فيديو موثوق أو تقرير لجنة ثلاثية مختصة من الأطباء الشرعيين وغير ذلك. في الحقيقة هناك أسئلة يطرحها العلم عن متى وكيف ولماذا؟ عشرات الأسئلة التي ينقصنا الكثير من المعلومات في محاولة الاجابة عليها. وبعد كل ذلك أستغرب مقدار حماس بعض الناس لمعجزات لم يشاهدوها بأم عينهم؟! أستغرب مقدار الثقة في حوادث تعود لآلاف السنين في أماكن مجهولة أو بقع جغرافية بعيدة! إنّ احترام عقولنا هو أساس في احترام أنفسنا وتحسين شروط وجودنا. ينبغي

تفسير الدين عموما والاسلام خصوصا على الأقل بما لا يُناقض العلم والسنن الكونية!

ث- **عدم وجود فارق** قابل للمعاينة بين **مفاهيم المعجزة والكرامة والسحر والاستدراج**، جميعها تشترك في خرقها للمألوف السائد، وتختلف فقط في تأويلها و تفسيراتها بما يناسب الخلفية الثقافية للمُتلقي وسياقات توظيف الحدث الفعلي أو المُفترض، والذي غالبا ما تتعلق بصراعات عقائدية تبشيرية أو مكاسب اجتماعية –اقتصادية شخصية. عمليا لا يستطيع عامة الناس تمييز **الحِيل والخِداع البصري** الاحترافي، وبما قد يلتبس مع المُعجزة خاصة في العصور القديمة.

ج- لا يمكن **استثناء المُصادفة** عند مناقشة الخوارق والمعجزات، كما ينبغي الحذر من التفسير الإعجازي للحدث **بالطريق الراجع**، ومنه حدوث زلزال تسبب في تدمير مدينة معينة، لاحقا يتم تفسير الحدث بكونه معجزة الهية استهدفت هذه سكان هذه المدينة بسبب كفرهم وظلمهم. ومنه كذلك غرق سفن حربية أثناء مُطاردة أو معركة بحرية بسبب عاصفة أو خطأ بشري، لاحقا يتم تفسير الحدث كعقاب وتدبير إلهي يستهدف الكافرين.

من هدهد سليمان إلى معجزة الهاتف الجوال!

وفقا للرواية القرآنية (سورة النمل – الآيات من ٢٠ إلى ٢٨) أخبر طائر الهدهد النبي سليمان- والمشهور أنه في فلسطين- عن حال الملكة بلقيس - والمشهور أنها في اليمن- ومن ثمّ قام الهدهد بتبليغ رسالة الملك سليمان للملكة بلقيس. تم اعتبار هذا بمثابة معجزة إلهية، وتدخلاً مباشراً من الله لخرق قوانين الطبيعة ومبادئ علم الفيزياء والتواصل. أمّا من جهة أخرى، فقد جاء الهاتف الجوال كاختراع بشري متأخر استند إلى اكتشافات جديدة في علم الفيزياء والتواصل، ومن ثم تسخيرها لغرض اختراع مُحدد.

مقارنة بين معجزة الهدهد ومعجزة الموبايل:

أ-**لا يوجد دليل تاريخي** يوثق واقعة إخبار الهدهد للنبي سليمان عن الملكة بلقيس. ومن شبه المستحيل اثبات ذلك بمعايير علمية كافية لغرابة الخبر ونقص المعلومات. بينما يستطيع أي انسان مسك الهاتف الجوال بيده، واجراء مكالمة هاتفية أو مكالمة فيديو بين شخص في فلسطين وسيدة في اليمن، وهذا متاح وقابل للمعاينة، ولا سبيل لإنكاره.

ب- إنّ هدهد سليمان هو **حدث يتيم لم يتكرر**، وهو مرتبط حصرياً بشخص النبي دون غيره. أمّا الهاتف الجوال فهو اختراع شائع الاستخدام **مُتاح لعامة الناس** في عصرنا تنتج منه الشركات ملايين الأجهزة سنوياً وهو قابل للتحسين.

ت- أيهما **أكثر فائدة للبشرية** هدهد سليمان أم الهاتف الجوّال؟ ما هو تأثير هدد سليمان على تطور المجتمعات البشرية وماهي المشاكل التي ساهم في حلها؟ بينما أحدثَ الهاتف الجوال ثورة عالمية في التواصل البشري، وسهّل إلى حد بعيد حياة الانسان توفيرا للوقت والجهد.

لنتساءل أين تتجلى قدرة الله أكثر في معجزة الموبايل أم معجزة هدهد سليمان؟! أليس اكتشاف

قوانين الله في الفيزياء والموجات الراديوية ومن ثمّ وملاءمتها وتسخيرها لاختراع الهاتف الجوال شيئا يشبهُ المعجزة! لنفترض شخصا يمسك بالهاتف الجوال ذهب إلى مجتمع منعزل لقبيلة في غابات الأمازون، ثمّ أراهم هذا الجهاز، وقال لهم أنا نبيٌّ أرسلني الله إليكم، ومصداق نبوتي هو هذا (معجزة الموبايل).

بالعودة إلى التعريف الشائع اسلامياً للمعجزة بكونها (أمر خارق للعادة، يظهرهُ الله على يد مُدعى النبوة تصديقا له في دعواه مقرونة بالتحدى مع عدم المعارضة) أليس الهاتف الجوال خارقا لعادات مألوفهم؟! هل يستطيعون معارضته والاتيان بمثله؟! ثم ما الفائدة المرجوة من كل هذا! بالمقابل إن انشاء مدرسة حديثة وتعليم أطفال القبيلة العلوم واكتشاف سنن الله في الطبيعة والخلق هو الأكثر أهمية.

الاسلام وقصور برهان المعجزات؟

يُوصف الاسلام -على نطاق واسع- بكونه رسالة من الله الى الناس يتم التعبير عنها وتحقيقها عبر النبوة المحمدية، ويوصف القرآن الكريم – اسلامياً- بكونه رسالة الله الى الناس عامة والمسلمين خاصة. حسنا لنؤكد على معنى الرسالة هنا، فالإسلام هو رسالة وينطبق عليه ما ينطبق على **قانون الرسالة العام**، فهناك مُرسِل هو الله سبحانه تأويليا، وهناك **المُرسَل اليهِ** أي الناس، وهناك **حامل الرسالة** أي النبي محمد والذي هو الناطق الأول أو الخاتم في مسرح التاريخ عن الرسالة. إذا هناك رسالة –مُرسِل- مُرسل اليه- حامل الرسالة، كل ذلك بالإضافة إلى سياقات الارسال والتي يكون لها أوجه متعددة: توثيقية تاريخية لغوية اجتماعية سياسية.. الخ.

لنؤكّد إذا على مركزية مفهوم الرسالة في الاسلام. إنّ مِصداق وأهمية أي رسالة تكمن في محتواها وما تقول؟ ومِصداق رسالة الاسلام تكمن في خطابها نفسه وما تريد قوله للناس، وبرهان صدقها يكون في صلاحها وصلاح المؤمنين بها التزاما بمعايير الفطرة الانسانية السليمة، وأولويات الحياة، والعدل، والحرية.

المعجزات المنسوبة للنبي

يذكر ابن هشام المتوفي ٢١٣ للهجرة في سيرته فقط عشرة معجزات للنبي محمد، وسوف يزداد عدد المعجزات وبشكل طردي مع مرور الزمن، حيث يتضاعف هذا العدد أربع مرات عند أبي الحسن الماوردي المتوفي سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابة (أعلام النبوة) ليصبح ٤٠ معجزة، وبعد ذلك سوف تتسارع وتيرة المعجزات المنسوبة لتصل مع ابن برهان الدين الحلبي المتوفي سنة ١٠٤٤ في سيرته (السيرة الحلبية) إلى ثلاثة آلاف معجزة.[٢] **ويُروى عن الشافعي** «ما أعطى الله نبياً معجزة إلا وأعطى محمداً مثلها أو أعظم منها « فقيل للشافعي أعطى الله عيسى إحياء الموتى، فقال: أُعطي محمد حنين الجذع حتى سُمع صوته فهذا أكبر من ذلك.[٣]

---

٢ المعجزة أو سبات العقل في الاسلام –جورج طرابيشي- دار الساقي- بيروت- ٢٠٠٨، الفصل الثاني (نبي الثلاثة آلاف معجزة)

٣ آداب الشافعي ومناقبه، أبي حاتم الرازي- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٧١،ص٦١

من الملاحظ أنّ موضوع المعجزات قد تحوّل الى ساحة للصراع العقائدي الاسلامي المسيحي. هل معجزاتنا أكثر أم معجزاتكم؟! هل معجزاتنا أقوى أم معجزاتكم؟! ومن أغرب المعجزات المنسوبة للنبي **معجزة كلام الذئب**، وذلك أنّ رجلاً كان في غنمه يرعاها، فأغفلها سويعة من نهاره، فعرض ذئب فأخذ منها شاة، فأقبل يعدو خلفه فطرح الذئب الشاة ثم كلّمه بكلام فصيح فقال: تمنعني رزقاً ساقه الله إليّ، فقال الرجل: يا عجباً الذئب يتكلم! فقال: أنتم أعجب وفي شأنكم للمعتبرين عبرة، هذا محمّد يدعو إلى الحقّ ببطن مكّة، وأنتم عنه لاهون، فأبصر الرجل رشده وأقبل حتّى أسلم، وأبقى لعقبه شرفاً لا تخلقه الأيّام يفخرون به على العرب والعجم يقولون: إنّا **بنو مكلّم الذئب**.[٤]

هل توقفت المعجزات بمجيء نبوة محمد؟

ثمة وجهة نظر مُعتبرة عند مفكرين اسلاميين من الاتجاه الاصلاحي والتنويري من أمثال الشيخ محمد عبده ومحمد إقبال والشيخ جودت سعيد والدكتور حسن حنفي وغيرهم؛ تعتبر أن المعجزات الحسّية المصاحبة للنبوات كانت ضرورة وموجودة فقط ما قبل عصر النبوة المحمدية، ولكن وظيفتها انتهت مع مجيء النبوة المحمدية الخاتمة، حيث نقرأ في تفسير المنار- نقلا عن الشيخ محمد عبده «فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مُدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان... إنّ المعجزات هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتق عقولهم لفهم البرهان، ولا يضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات.[٥]

كما يورد حسن حنفي: **وقعت معجزات بالمئات ولم يصدق الناس بالأنبياء، بل وزاد البعض منهم كفراً وعصياناً، في حين عندما توقفت المعجزات بمعنى خرق قوانين الطبيعة وأصبح الدليل على صدق النبوة داخليا، أي عقلا وواقعا، نظريا وعمليا، فكرا ومصلحة، آمن الناس وأسسوا مجتمعات وأقاموا دولا وفتحوا العالم القديم.** [٦]

كما يميز حنفي ما بين المعجزة والآية «فالآية ليست معجزة، لأنها دليل منسجم مع الطبيعة والعقل، في حين أن المعجزة ضد الطبيعة وضد العقل.[٧]

ونقرأ لجودت سعيد „فالقرآن وصف معجزات السابقين من عصا موسى، وخلق عيسى للطير من الطين وناقة صالح إلى سواها... وبينّ أن هذه المعجزات كانت تؤدي دورها في عصر معين تسيطر فيه عقلية معينة كانت تطالب برؤية معجزات خارقة للسنن. ولكن القرآن وإن قص مثل هذه القصص، إلا أنه لم يعد يتعامل مع الناس على هذا الأساس، وهذا فيه ارتقاء في نوع الدليل.[٨]

---

٤ مسند الإمام أحمد بن حنبل، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ج٣، ص٨٣

٥ تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ج١، ص٢٦٨، تفسير الآية ٥٠ من سورة البقرة.

٦ من العقيدة إلى الثورة (النبوة- المعاد) ج٤، حسن حنفي، مؤسسة هنداوي، ويندزر- المملكة المتحدة- ص٦٥

٧ نفس المرجع- ص٦١

٨ اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ص٥٨

تعقيبا على ذلك سأورد النقاط التالية:

أ- **الإشكالية** هي في **مبدأ المعجزة** بحد ذاته باعتبارها خرقا لانتظام الطبيعة والسنن الكونية، حيث لا يُمكن التحقق من الحدث المُعجز ذاته بغض النظر عن المكان والتاريخ، وبناء على ذلك لا يوجد سبب لازم ومُقنع للتميز بين عصور ما قبل النبوة المحمدية وعصور ما بعدها.

ب- إنّ **التغير النوعي الأهم في الوعي البشري حدث في أوروبا** وليس في الجزيرة العربية، وظهر ابتداء من **القرن الثامن عشر ميلادي**، وليس في القرن الأول الهجري، ومن معالم هذا التغير النوعي المُتسارع استقرار منهج التجريب في العلوم والثورة الصناعية وعصر التنوير الديني وتحرير العبيد وظهور الدول الديمقراطية الحديثة وثورة المعلومات والاتصالات وغزو الفضاء ونحوها. وليس في ذلك تقليلا من أهمية ظهور الاسلام، ولكن ربطهم لتوقف المعجزات بحدوث تغيير نوعي في الوعي الانساني مزامن للنبوة المحمدية لا تدعمه الأدلة التاريخية! ترى ما الفارق النوعي بين حال الدولة الأموية اللاحقة للنبوة وبين حال الامبراطورية الرومانية السابقة للنبوة المحمدية؟!

ما الفارق النوعي في الوعي البشري بين عصر المدن الاغريقية السابق للنبوة وبين حال الدولة العباسية أو دول المماليك اللاحق للنبوة مثلا؟!

ت- أتفهم تماما رأي المفكرين الاصلاحيين والتنويريين في توقف النبوات، وأقدّر عاليا جرأتهم في طرح هكذا أفكار بيئة تقليدية مُفرطة التدين، مُعادية لاجتراح التفكير، ولكن ظنّي أنّ هذا يدخل في باب التفكير الرغبوي والمركزية الاسلامية في تفسير العالم والظواهر الاجتماعية العامة.

رأي المعتزلة في المعجزات

كل الفرق الاسلامية القديمة عموماً قالت بوجوب المعجزة، وكونها من لوازم النبوة، ومن المناسب هنا تبيان موقف المعتزلة لخصوصية مذهبهم في الاستدلال العقلي. حيث قال غالب المعتزلة بوجوب المعجزة وضرورتها لتأييد النبوة، ولكنّهم أنكروا الكرامات التي قد تجري على يد الأولياء والصالحين. فالمعجزة صفة إلهية اختص بها الله أنبياءه دون غيرهم، وقدّم القاضي عبد الجبار في كتابه (المغني) شروطا معينة للمعجزة.

هناك رأي لافت لبعض المعتزلة ينكر احتياج النبي إلى المعجزات ومنهم ابراهيم بن سيّار النظّام وعباد بن سليمان وهشام الفوطي، وعيسى بن صبيح الملقّب بالمرداد، فهم لا يعتبرون القرآن الكريم كتابا مُعجزاً بحد ذاته! حيث يقول النظّام مثلاً بالصّرفة، واستطاعة البلغاء أن يكتبوا من جنسه، لولا أنّ الله سبحانه وتعالى صرفهم عن ذلك. ولاحقا تم تكفير هؤلاء من قبل بقية المعتزلة قبل غيرهم، وقام القاضي عبد الجبار بالرد على مقولة (الصرفة) في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن).

لا يختلف رأي المعتزلة المتأخرين عن بقية المتكلمين المسلمين فيما يخصّ المعجزات، حيث يذكر القاضي عبد الجبار المتوفي ٤١٥ للهجرة في سفره (شرح الأصول الخمسة) فإن قيل ما المعجز الذي ظهر على محمد؟ قلنا معجزات كثيرة من جملتها القرآن. فإن قيل وما وجه الاعجاز في القرآن الكريم؟ قلنا إنه

تحدى العرب بمعارضته مع أنهم كانوا هم الغاية في الفصاحة.[٩]

القرآن ومعجزات الأمم السابقة

يحفل القرآن الكريم بأخبار الأنبياء السابقين ومعجزاتهم في سياق التحدي ونشر دعوة التوحيد أو في سياق الاختصاص الايجابي لأنفسهم أو الاختصاص السلبي لمعارضيهم، بما يشمل العقاب الجماعي ونحوه. إنّ أخبار الأنبياء ومعجزاتهم –باستثناء النبي محمد- من الكثرة والوضوح بما لا يمكن تجاهلها أو إنكار وجودها في نصوص القرآن. من جهة أخرى وبناء على المُقدمات التي تم عرضها أعلاه في نقض لزوم المعجزات عقائديا مع استحالة التحقق من وقوعها موضوعيا

ما العمل وما المخرج؟

للإجابة على هذا التساؤل المُشكل ينبغي التذكير والتأكيد على هوية القرآن الكريم واختصاصه، فالقرآن الكريم هو كتاب عقيدة وتوحيد، وليس كتاباً في تاريخ الأمم، وليس كتاباً يختصّ في علم من العلوم! القرآن الكريم كتاب هداية يدعو المؤمنين إلى التفكّر في سنن الخلق، واستحضار عظمة الله وتذكيرهم بفطرة الخير ومحاسن السلوك.

إنّ أخبار الأنبياء ومعجزاتهم جاءت في القرآن الكريم في صيغة قصص لغاية الاعتبار والإرشاد. للقصص عموما وظائف متعددة، ولا يُشترط فيها مُطابقة وقائع التاريخ وتفاصيل حدوثه. ومن المفيد هنا **التذكير بالنقاط التالية**:

أ-يتميز **الأسلوب القصصي للوعظ** بالتشويق وسهولة الحفظ وبقاء الأثر مقارنة بالأساليب الأخرى.
ب- تؤكد القصص القرآنية على معاني **الاعتبار** والتذكير بقدرة الله، وتستهدف **تعزيز ثقة النبي** محمد ومن حوله بأنفسهم وأنّهم في رعاية الله كمن سبقهم من أنبياء الأمم السابقة.

ت- **عدم اهتمام القصص القرآني بالتاريخ الوقائعي وجغرافيا للقصص**، بالإضافة إلى الاقتصاد في ذكر الأشخاص ماعدا أسماء الأنبياء أنفسهم واهمال ذكر التفاصيل، كل ذلك بغية التأكيد **على مَقصَد القصص**، من ثمّ توظيفها في السياق العقائدي نفسه.

ث- معظم القصص القرآني لم يكن جديدا بالمطلق، وثمة اشارات متعددة أنّهُ كان متداولا في زمن النبوة، حيث نجد جذور القصص القرآني في كتابات العهد القديم حيث نجد قصة الطوفان وسفينة نوح في سفر التكوين، أو قصة النبي يونس/ يونا ومكوثه ثلاثة أيام في بطن الحوت، أو نجد جذورها في الكتابات المسيحية اللاحقة كقصة **أهل الكهف** حيث نجدها في «مواعظ» القديس السرياني يعقوب السروجي المتوفي سنة ٥٢١، أو كانت من الأخبار التي يتداولها أهل جزيرة العرب في زمن البعثة النبوية حيث نجد الشعر الجاهلي حافلا بالعديد من الاشارات من قبيل : قوم عاد- لقمان بن عاد- عهد إرم- من بعد نوح ومن قبل عاد.. الخ.

لقد خاطب القرآن الكريم معاصريه انطلاقاً من شائع ثقافتهم، وخاطب اليهود والنصارى انطلاقاً من

٩ شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار، مكتبة وهبة، القاهرة- ط٣، ١٩٩٦، ص٥٦٨

شائع ثقافتهم أيضا، فمقتضيات الشرط القرآني آنذاك تتلاءم مع السياق التاريخي والاجتماعي والثقافي المعاصر له.

ث- إنّ **تجريد القصص القرآني عن سياقاتها**، واعتبار مادّتها حقائقاً تاريخية علمية أو اعتبارها إعجازاً علميّاً أو اعجازا ماضوياً تاريخياً، كل هذا يحتملُ التعسف ويضع النص القرآني في تعارض مع مرجعية العلم والبرهان الموضوعي. وحسب ظنّي أنّهم **يسيئون استخدام القرآن الكريم**، ولا يحسنون صنعاً. فعلى سبيل المثال: كيف لعاقل تفسير حديث الهدهد للنبي سليمان بغير كونه قصصاً في سياق التعليم والوعظ! وكيف يمكن لعاقل تفسير استهداف الجن بالشُّهب لمنعهم من استراق السمع ومعرفة الغيب! كيف لعاقل تفسير تحول الانسان إلى قرد خاسئ أو خنزير بغير كونه قصصاً في سياق التعليم والوعظ!

مناقشة آيات الاعجاز والتحدي في القرآن الكريم!

لنعرض للآيات القرآنية التي يستدل بها الاعجازيون على تحدي الاعجاز، ومعظمها آيات مكّية:

- قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. (الاسراء:٨٨)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. (يونس: ٣٨)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. (هود: ١٣)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ. (الطور: ٣٤)

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. (البقرة:٢٣)

يلاحظ هنا انتقال التحدي تصاعدياً من «مثل هذا القرآن» إلى «سورة مثله» إلى «عشر سور مثله» إلى «حديث مثله» إلى «سورة من مثله». وتعقيبا على ذلك:

أ-لا نجد **مصدراً محايداً** يسرد وقائع التحدي وتفاصيلاً كافية للسجالات التي حدثت آنذاك.
ب- لا يوجد بين أيدينا وثائق كافية تفسح المجال لدراسات مقارنة عن **الخطابات/ النصوص ما قبل القرآنية** من قبيل سجع الكهان والشعر الجاهلي ومصادر اليهودية أو مصادر مسيحية (هرطوقية) أو نصوصا لمُدّعي النبوة المعاصرين للبعثة النبوية.

لذلك ينبغي النظر إلى مجموع الآيات القرآنية السابقة على أنّها تعرض منظوراً فئويا للايمان في **سياق خاص لا يمكن تعميمه** أو نقله الى فضاء علمي عابر للعقائد والفئويات. وما سبق هو مجرد توصيف، قد يجنّب المؤمنين قبل غيرهم خطر الانزلاق الى تعميم واستنتاجات ناقصة البرهان تنتهي

بسجالات غير مثمرة.

ت- لكي يكون التحدي عادلا **ينبغي توفر شرط الحرية** دونما إكراه وتهديد وبعيدا عن لغة السيف والحرب. لنتساءل **ما هو الهامش** الذي أتاحته وتتيحه الثقافة العربية الاسلامية والنُظم السياسية الحاكمة للتعامل مع هكذا قضايا بحرية! هل من الممكن مثلا نشر كتاب أو تداول كتاب بعنوان (أخطاء القرآن) أو (مُعارضة القرآن) (نقد نبوة محمد) (المصادر السرية للقرآن الكريم) دونما تعرض كاتبه للتكفير والقتل بدم بارد.. وطبعا مع ضمان حق الردّ والنقد لعرض الآراء والحجج المختلف.

ث- السياق المُشترك لهذا الآيات هو تحدي المعارضين للنبي محمد على الاتيان بمثل هذا القرآن أو بمثل جزء منه (سورة)، وهو **سياق صراعي مشحون عاطفياً**. يلاحظ معظم آيات التحدي مكية، **عندئذ لم يكن القرآن قد اكتمل بعد**، حيث إن نسبة القرآن المكي تقارب النصف من مجمل القرآن الكريم.

ج- الخطاب القرآني في هذه الآيات يستهدف تحدي الكفار المُشككين في المصدر الالهي للقرآن الكريم، ويستهدف إقناعهم بمِصداق نبوة محمد، وهذا السياق الخاص للآيات يختلف تماما عندما يكون المُخاطَب أو القارئ لهذه الآيات شخصا مُسلما مؤمنا بالله، ومقتنعا بالنبوة وبقداسة القرآن عن رضى وطيب خاطر.

تفسير النصوص في سياق مُعجز (الاسراء والمعراج- انشقاق القمر)

سأضرب مثالين الأول حول ما يُسمى بمعجزة الاسراء والمعراج، والثاني حول ما يُسمى بمعجزة انشقاق القمر. سأعرض في المثالين للنصوص القرآنية كما هي، دونما اعتماد على تفسيرات وأخبار تم تدوينها بزمن متأخر، وما يدعم هذه القراءة الاجرائية وجود فارق كبير بين النص القرآني نفسه ونصوص المرويات الأخرى من جهة القداسة، ودرجة التوثيق الأقوى للنص القرآني بالمقارنة مع غيره.

عن الاسراء والمعراج:

سأعرض الآيات الثلاثة الأولى من سورة الاسراء:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً(٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا.»

يُلاحظُ ما يلي:

أ- المُخاطِب هنا هو الله، تؤكد الآيات على **عظمة الله** من خلال ألفاظ التعظيم للفاعل (سبحان) وكذلكَ عبر وصف المفعول به ب (عبده- عبداً شكوراً) وكذلكَ عبر استخدام ضمير الجمع(نا) في الخطاب.
ب- **لا يوجد تصريح باسم النبي محمد** باعتباره الشخص المقصود بالإسراء، فقد يكون المقصود هو النبي موسى باعتباره الشخص المذكور في الآية التالية مباشرة؟! وقد يكون النبي محمد وقد يكون غيره. فالسياق القرآني هنا يؤكد على عظمة وقدرة الله في فعل الاسراء ويُسمِّي الانسان الذي قام بالفعل أرضياً مُستخدما صيغة الضمير دونما تصريح.

ت- **لا تعطي الآية تفاصيل وافية عن زمان ومكان** حدث الاسراء (المُعجز). تم استخدام الفعل الماضي (أسرى) وهذا يفيد فقط أن الحدث وقع في تاريخ سابق للآية نفسها، وهذا قد يكون قبل أسبوع أو سنة أو ألف سنة! أمّا من جهة المكان لا يوجد تحديد لنقطة الانطلاق، وجاءت الاشارة الى (المسجد الأقصى) دونما تحديد جغرافي، ومن المعلوم أن **المسجد هو دار العبادة للمسلمين** دون غيرهم، ومن المُفترض أن الاسلام كان في ذلك الزمن وليدا غير مِنتشر خارج الحجاز، فهل نستطيع الحديث عن مسجد في بلاد الشام وفلسطين! حيث لم يصل الاسلام بعد! إنّ تاريخ الاسراء غير متفق عليه بدقة بين المفسرين، لكنّه وفقا لرواياتهم هو سابق للهجرة، بينما فتح فلسطين تم في ١٥ للهجرة، وعندما وصل المسلمون لم يكن المسجد الأقصى موجودا كبناء. هل المقصود بالمسجد الأقصى مكان آخر؟ ربّما وربّما لا! باختصار القضية هنا اشكالية ويوجد فيها بعض الغموض، والسياق القرآني نفسه لا يعطيه الأولوية لتبيان ذلكَ. **التركيز هنا على الفاعل الالهي** وتعظيم قدرته على فعل الحدث وليس على **الحدث نفسه**.

ث- في التقليد الاسلامي نستخدم تعبير (معجزة الاسراء والمعراج) ومن المعلوم أن العروج الى السماء هو حدث أصعب وأعظم بالمقارنة مع الاسراء الذي هو الانتقال والمسير بين مكانين على الأرض. لماذا لم تتم الاشارة قرآنيا الى (معجزة المعراج) في سياق تتابعي متصل.. حيث إن التقليد الاسلامي يستخدم تعبير (الاسراء والمعراج) أو (الاسراء ثم المعراج). المنطق السليم يقول لو حدث المعراج تالياً لحدث الاسراء ينبغي الاشارة له تتابعيّا في الآية التالية، وليس الانتقال الى سياق آخر يبدو منفصلاً عن السابق (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً. (٢)

ج- يستدل البعض على آيات من **سورة النجم** بأنها اشارة إلى **المعراج** (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَآ أَوْحَى) سياق هذا الآيات وظاهر معانيها **غامض متداخل لا يسمح ببناء قصصي** يتوافق مع **قصة المعراج**، وهذا سياق منفصل لا يأتي على ذكر حادثة الاسراء التي يؤكد التقليد الاسلامي الرسمي على اقترانها بحادثة الاسراء من جهة التتابع والوحدة العضوية للحدث المُعجز.

الخلاصة: جاءت الاشارة القرآنية لما يُسمى معجزة الاسراء والمعراج والتي يُدرجها الكثير تحت مُسمى (المعلوم من الدين بالضرورة، أو فئة كبرى اليقينيات الكبرى) جاءت الإشارة مُقتضبة دونما تأكيد على تفاصيل الأشخاص والزمان والمكان؛ وكان الهدف من الاشارة هو التأكيد على عظمة الله وامكانات قدرته وليس غير ذلك. فهل تصلح هذه الآية القرآنية كقرينة للاستشهاد على معجزة الاسراء والمعراج للنبي محمد؟! إجابتي ومن منظور عقائدي ديني: **لا يوجد أدلة وتفاصيل كافية** تدفع للاستشهاد بها **كقرينة على حدوث مُعجزة!**

عن معجزة انشقاق القمر

جاء في سورة القمر ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ(١ – ٣). يُلاحظ:

أ- لم تتناول الآية **بشكل صريح** حدوث واقعة مُعجزة على يد النبي محمد موضوعها انشقاق القمر، كذلك مع عدم نفي امكانية تفسيرها ضمن السياق الاعجازي التقليدي كذلك.

ب-هناك **ربط زمني** بين **انشقاق القمر**، **ويوم القيامة** (الساعة)، وللتذكير كثيراً ما يَستخدم القرآن الكريم صيغة **الفعل الماضي** في الحديث عن المستقبل وتحديداً عند وصف مشاهد يوم القيامة، ومنه على سبيل المثال ما ورد في سورة الشعراء (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) حيث جاءت أفعال (وَأُزْلِفَتِ، وَبُرِّزَتِ، وَقِيلَ) جميعها بصيغة الماضي.

ت- وفقا للتفسير الاعجازي التقليدي (معجزة انشقاق القمر) حدثت في حياة النبي محمد، وهي من دلائل قدرة الله العظيمة على افناء الخلق وتدمير العالم يوم القيامة. لنتساءل **هل يمكن وصف مدة الألف وأربعمائة سنة** على الأقل بين **التاريخ الافتراضي ويوم القيامة بالقرب!** قياسا لتقدير حياة الانسان والجيل المُقدّر ب ٣٠ سنة مثلاً!

ث- ثمّة مرويات تراثية تنسب عبارة « اقتربت الساعة وانشق القمر» إلى الشاعر **امرؤ القيس... « دنت السّاعةُ وانشقّ القمر عن غزالٍ صادَ قلبي ونَفَر»** فهل هذا يُبرر لنا الحديث عن الاعجاز العلمي في شعر امرؤ القيس المتوفي قبل مولد النبي بثلاثين عاما مثلا! في الحقيقة إنّ المرويات المَنسوبة الى شعر امرؤ القيس قد تصحُّ أو لا تصحّ، وربّما المقصود هو شاعر آخر غير امرؤ القيس صاحب المعلقات؛ وتبقى كلها ضمن دائرة الافتراض! لنلاحظ أنّ تاريخ تدوين روايات الشعر الجاهلي مُقارب زمنيا لتاريخ تدوين روايات التفاسير والأحاديث المنسوبة الى النبي محمد في ذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة وليس قبل ذلك!

ج- لنميّز بين الحدث الفعلي والايهام البصري للحدث وامكانية اختلاق الأحداث وتداولها لاحقا. إنّ برهان حدوث انشقاق القمر من عدمه هو **قضية تستلزم البرهان العلمي التجريبي**، وتُحال الى أهل الاختصاص في علوم الفضاء، وليس إلى حقل العقائد والأديان. البرهان العلمي تجريبي عام ومُلزم، بينما **برهان العقائد فئوي خاص ويُلزم المؤمنين بها دون غيرهم**.

ح- العديد من المفسرين وضعوا هذه الآيات **في غير السياق الاعجازي** ومنهم الشيخ رشيد رضا بقوله: فعلى هذا يقال: انشق القمر بمعنى طلع وانتشر نوره ويكون في الآية بمعنى ظهر الحق ووضح كالقمر يشق الظلام بطلوعه ليلة البدر. [١٠]

١٠ مجلة المنار، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، القاهرة، ١٩١٧، مجلد (٣٠) (٣٧٢/٥)

حول معجزة القرآن، هل القرآن الكريم كتاب معجز؟ لمن؟ ولماذا؟

القرآن الكريم نص مُهيمن في الثقافة العربية الاسلامية، نص يحتفي بالمجاز والمُدهش الخلاب، نص مشحون عاطفياً، نص رفيع المستوى من جهة البلاغة ويعرض لجماليات لغوية عالية. وما سبق من توصيف منفصل عن نظرية الاعجاز البياني في القرآن الكريم والتوصيف الأوّل لا يقتضي القبول بالفرضيات الاعجازية. سأعرض لعدد من النقاط ذات الصلة:

أ-تتيح اللغة امكانية التواصل ضمن **العقد الفئوي الخاص** بالجماعة اللغوية، ولكنها تصبح **عائقاً للتواصل مع الآخرين** الذين لا يتكلمون نفس اللغة. القرآن الكريم كتاب عربي (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (بلسان عربي مبين) وبالتالي سوف يمتنع فهم القرآن الكريم من قبل غير الناطقين بالعربية، وهم غالب البشر على مر التاريخ! كيف يمكن اقناع شخص صيني أو أسباني مثلا بالإعجاز البياني للقرآن الكريم؟! هل سوف نطالبهم بتعلم اللغة العربية، واتقانها للتعرف على عظمة الاعجاز اللغوي البياني في القرآن! وبالمقابل **سوف يطالبنا معتنقي الأديان الأخرى بتعلم لغتهم**، مثلا تعلم اللغة السنسكريتية للتعرف على الاعجاز البياني في (كتاب الفيدا) وهو الكتاب المقدس في الهندوسية! لو افترضنا أن الاعجاز القرآني من ضرورات الدين أو مشمولاً في أركان الايمان - كما يروّج الاعجازيون- فهذا يعني أن ايمان المسلمين من غير العرب - وهم غالبية المسلمين فنسبتهم حوالي ٧٥٪ من مجموع المسلمين- سوف يكون **منقوصاً**، وعداك عن العرب الأميين الذين لا يعرفون القراءة والذين تقدر نسبتهم ب ثلث مجموع السكان!

ب- هناك **تيار معتزلي** ظهر باكراً في القرن الثاني الهجري قَبِلَ توصيف القرآن الكريم بالمُعجز، ولكنهم قالوا بالصُّرفَة أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم فلم يحاولوا ذلك. والاعجاز القرآني- من وجهة نظرهم - **اعجازٌ غير موضوعي**، ومن القائلين بهذا الرأي ابراهيم بن يسار النظام وهشام الفوطي وعبّاد بن سلمان.. وغيرهم.

ت- هل جماليات اللغة والبلاغة دليل على **المصدر الالهي للكلام والنصوص**؟ إلى أي درجة يمكن اعتبار البلاغة اعجازا؟ وما هي المعايير التي نستخدمها لتمييز البلاغة الاعجازية عن غيرها؟ هل من الممكن إدراج النصوص العربية الأخرى عالية البلاغة تحت نفس الموضوع؟ إنّ **للبلاغة وظائفا محددة في اللغة** أهمها ملائمة المَقصد والاستمتاع الجمالي وقوة التأثير، وليس من وظائف البلاغة إثبات نَسَب النصوص وتغيير معتقدات الناس.

ث-**على افتراض ثبوت الاعجاز البياني للقرآن الكريم**، كم دخل من الناس الاسلام في طوره المكي وخلال ١٣ سنة بناء على التأثير البلاغي الاعجازي المُفترض؟! ألم يكن معظمهم من أقرباء وأصدقاء النبي محمد وكذلك من المستضعفين الذين وجدوا في الاسلام ضالتهم لتحسين اعتبارهم وشرطهم الاجتماعي؟! **هل انتصر الاسلام بفعل البلاغة والاعجاز البياني** وغير البياني؟! أم انتصر الاسلام بما يمكن أن تنتصر به أي دعوة عقائدية وليدة وفقا للسنن وقوانين الاجتماع البشري؟ في الواقع يقوم الناس بتغير عقيدتهم الدينية وغير الدينية عندما تلبي العقيدة الجديدة احتياجاتهم وتتوافق مع مصالح مادية ومعنوية تحقِّقها لهم أو تعدهم بتحقيقها لاحقا!

ج-إنّ **نظريات الاعجاز القرآني متأخرة نسبياً**، تمت صياغتها في القرن الثالث للهجرة، بداية مع الاعجاز البياني، وتدرجا على مراحل لننتهي مع الاعجاز العلمي والاعجاز العددي في نهايات القرن العشرين، وللمزيد حول هذا الموضوع يمكن الاحالة الى كتابي (الاعجاز العلمي تحت المجهر) وكتابي (تهافت الاعجاز العددي في القرآن الكريم). يمكن تلمّس بدايات التنظير لموضوعة (الاعجاز القرآني) مع كتاب الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ للهجرة والمُعنون بـ (نظم القرآن) حيث تناول فيه إعجاز النظم القرآني. الكتاب نفسه مفقود، ولكن الباقلاني ذكره وعلّق عليه. لم تتبلور نظرية الاعجاز القرآني كموضوع مُستقل للتأليف إلا في القرن الرابع الهجري مع كتاب: « إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه » لأبي عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ للهجرة.

MENA RESEARCH CENTER
مركز أبحاث ودراسات مينا